آيةُ التبليغِ مقاربةٌ تداوليةٌ

م.د. خيرالدين علي الهادي سليمان
كلية التربية قسم اللغة العربية / جامعة الحمدانية

The verse of notification is a communicative approach

Asst.Dr. Khair El-Din Ali El-Hadi Suleiman
College of Education, Department of Arabic Language,
University of Al-Hamdaniya
Email: khairulden.a@uokerbala.edu.iq

ملخص البحث

تهتمُّ التَّداوليَّة بالعمليَّة التواصليَّة وأطراف الحوار ومقاصده؛ إذ تمثِّل مُحرِّكًا لعمليَّة التواصل بين المنتج والمتلقِّي، وتراعي حال السَّامع في أثناء الخطاب، وكذلك تُعنى بالبيئة والأحوال الخارجيَّة المحيطة بالعمليَّة التواصليَّة، وتستند إلى كثيرٍ من مكاسب المعرفة الإنسانيَّة المختلفة، وهذا ما منحها طابع التَّوسُّع والثراء في مُعالجاتها المختلفة للغة.

ومجال بحثنا يستعرض البعد التداولي لآية التبليغ من طريق مراقبة السياق المقامي؛ لما أُثر عن الطبيعة التي صاحبت نزول هذه الآية وعملت على تفسيرها، ومن ثَمَّ اختيار الرواية التي تنسجم بأجوائها اللغويَّة والمقاميَّة مع الأجواء اللغويَّة التي ترسمها الآية، والآيات التي تقترن بها لغةً وموضوعًا؛ ليتسنَّى لنا الحكم على ما رُوي قبولًا أو رفضًا. وآية التبليغ أحدثت واقعًا عقائديًّا مهمًّا للمسلمين والمؤمنين تُركِّز في إظهار خصوصيَّة إلهيَّة كبرى للنبيِّ الأكرم وآله الطاهرين؛ بوصفهم محلّ كرامة إلهيَّة وأنَّ الله تعالى عاصمٌ لهم من شرور الباغين؛ بل سيوقع العذاب بالمعاندين ممَّن يأبى التسليم لنتائج التبليغ التي بيَّنها النبيّ في دعوته للمسلمين إلى الإيمان بالولاية والتسليم لأمر الله تعالى.

الكلمات المفتاحيَّة: الخطاب القرآني، آية التبليغ، التداوليَّة.

Abstract

Pragmatics is concerned with the communicative process, the parties involved in the discourse, and their intentions; for it represents the driving force of the communication process between the producer and the receiver. It considers the state of the listener during the discourse, and it is also concerned with the environment and external circumstances surrounding the communicative process. It relies on many achievements of various branches of human knowledge, which granted it an expansive and rich character in its diverse treatments of language.

The scope of our study examines the pragmatic dimension of the Verse of Proclamation by observing the situational context of what has been reported about the circumstances accompanying the revelation of this verse and which contributed to its interpretation. From there, we select the narration that harmonizes—both linguistically and situationally with the linguistic atmosphere drawn by the verse itself and the verses connected to it in language and theme, so that we may judge the transmitted reports with acceptance or rejection. The Verse of Proclamation produced an important doctrinal reality for Muslims and believers, centered on manifesting a great divine distinction for the Holy Prophet and his purified family (peace be upon them), depicting them as recipients of divine honor and that

God Almighty protects them from the evils of aggressors; indeed, He will inflict punishment upon those obstinate individuals who refuse to submit to the results of the proclamation that the Prophet (peace be upon him and his family) clarified in his call to Muslims to believe in the authority (wilāya) and submit to the command of God Almighty.

Keywords: Qur'anic discourse, Verse of Proclamation, pragmatics.

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على خير الأنبياء والمرسلين محمَّد وعلى آله الطاهرين، وبعد.

فيدرس هذا البحث آية التبليغ بوصفها أحد المرتكزات العقائديَّة لدى الإماميَّة، وقد تناوشتها آراء المفسِّرين وتفسيراتهم، فكانت منها تفسيرات جانبت الصواب، ومنها قاربته بشيء من الدِّقَّة، وفي كلِّ الأحوال فقد شكَّل فهم الآية محطّ خلاف المفسِّرين، وهذا طابع كثير من الآيات التي تحمل أبعادًا عقديَّة أن يطالها النقاش والتوجيه، وقد جاء هذا البحث ليدلي بدلوه من الجانب اللغوي، بيد أنَّه توسَّم منهجًا يعتمد المقام التخاطبي، عُرِفَ بالتداوليَّة، وقد ذُيِّل العنوان بمصطلح (مقاربة)؛ لأنَّ التداولية تبحث عن القصد، والمسك بقصد الله سبحانه متعذِّر، وإنَّما نقارب في تحليلنا المعنى العام، أو القصد من دون جزم بمرادِ الله تعالى؛ إذ على الرغم من حداثة النظريات التداوليَّة ونشأتها المتأخِّرة؛ لكنَّها نجحت في استيعاب كثيرٍ من معالم التفكير الإنساني، واتَّسعت للغات التواصل بأنواعها المتعدِّدة؛ لارتباطها بضروب فنون المعرفة الإنسانيَّة التي تتَّصل باللغة، ممَّا حدا بالباحثين إلى الاهتمام بهذه النظريات وإقامة التجارب عليها بنقل المعاني المقصودة عبر الاستعمال الهادف؛ بقصد الخروج من الإطار اللساني المحض إلى مستويات متقدِّمة من استخلاص المعاني التي

تتأرجح بين التأويلات المتعدِّدة بتحديد الأقرب منها على وفق قواعد التداول والاستعمال.

وقد جاءت خطَّة البحث على مبحثينِ؛ إذ سنشغل المبحث الأوَّل ببيان روايات أسباب النزول المتعلِّقة بالآية الكريمة، بينما درس المبحث الثاني إلى التحليل التَّداولي بمستوياته الثلاث، ويسبق المبحثان مقدِّمة، فتمهيد، ثمَّ يختم البحث بأهمِّ النتائج التي توصَّل إليها.

تمهيد:

لقد تنوَّعت تعريفات التداوليَّة عند اللسانيِّين؛ إذ حدَّها (موريس) بأنَّها فرعٌ من فروع السيميائيَّة، وبيَّن أنَّ غايتها النظر في العلامات وعلاقتها بمستعمليها[١]، وعلى هذا فإنَّ التداولية تتجاوز حدود اللسان؛ بل تتجاوز الميدان الإنساني أيضًا، ومن جانب آخر يُراد بالتداولية دراسة استعمال اللغة في الخطاب[٢]؛ لتتميَّز عن الدلاليَّات التي تقتصر على دراسة معنى الصيغ اللسانيَّة التي يحدُّدها الاستعمال، والمهتمُّون بهذا الحقل المعرفي لم يتوقَّفوا عند هذا الحدِّ في تعريف التداوليَّة؛ بل ذهب (فرانسيس جاك) إلى أنَّ التداوليَّة ظاهرة خطابيَّة وتواصليَّة واجتماعيَّة[٣]، فيما يرى (فان دايك) أنَّ ((التداولية بوصفها علماً يعنى بتحليل الأفعال اللغويَّة، ووظائف المنطوقات اللغويَّة... وتهدف إلى الإسهام في الاتِّصال، والتفاعل الاجتماعي))[٤].

وأمَّا الدكتور مسعود صحراوي فقد استخلص من سلسلة التعريفات السابقة وخلص إلى نتيجة مفادها أنَّ التداوليَّة: ((مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيَّات استخدام العلامات اللغويَّة بنجاح، والسياقات والطبقات المقاميَّة المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصليَّة واضحة وناجحة))[٥]، وبهذا جمع بين تعريف موريس من جهة وتعريفيْ فرانسيس جاك،

(١) ينظر: التداوليات وتحليل الخطاب- بحوث محكَّمة: ٢٣.
(٢) ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: ٩.
(٣) ينظر: محاضرات في المدارس اللسانيَّة المعاصرة: ١٧٤، وفصول في تداوليَّات ترجمة النص القرآني: ٢١-٢٢.
(٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٥.
(٥) التداوليَّة عند العلماء العرب: ١١٧.

وفان دايك من جهةٍ أخرى، إذ ابتدأ برؤية موريس وانتهى إلى مذهب فرانسيس جاك، وفان دايك.

ومن هنا كان للتداولية أثرٌ في النهضة المعرفيَّة والتواصليَّة بشكلٍ خاصٍّ، ولمَّا كان الخطاب القرآني موجهًا لمقاصد محدَّدة على الرغم من اختلاف القراءات عليها كان تحكيم نظريات التداول أوفر حظًّا في الوقوف على أقرب التصورات اللائقة بتوجيه الخطاب على وفق الاستعمال القائم على أساس مبدأ التعاون بين المنتج والمتلقي، وهذا لا يعني مطابقة النظريَّات التداوليَّة لعموم ميادين الأبعاد والمقاصد القرآنيَّة أو الاعتراف بأنَّ جزئيات نظريَّة التداول تناسب جميعها مبادئ تحليل النصوص القرآنيَّة، فقد اختلف الباحثون في تحليل الخطاب القرآني عبر نوافذ نظريَّات التداول المختلفة ضمن مفاهيم النظريَّة التداوليَّة.

ومن جانب آخر فإنَّ اهتمام التداوليَّة بدراسة القيمة الفعليَّة للأقوال والعبارات عبر نافذة الأفعال الكلاميَّة، واهتمامها بأثر السياقات والمقامات التي نشأت لأغراض التواصل والتفاعل بين المنتج والمتلقِّي، والتعرُّف على مجرى المحاورات في مبدأ التخاطب كلُّ ذلك دفع باتجاه الاهتمام بالأبعاد التداوليَّة في تحليل الخطاب القرآني[1]، فالأفعال الكلاميَّة أسهمت في تحديد ماهيَّة الخطاب بوصفه صورة من صُور الفعل، وبالنظر إلى الملفوظ على أنَّه فعلٌ جزئي؛ ثمَّ تتطوَّر فيما بعد إلى أفعالٍ كليَّة؛ مكَّنتها إلى أنْ تتحوَّل إلى خطابات بعد أنْ استوعبت صورًا من النشاط الاجتماعي.

ويعتمد هذا البحث توظيف المسارات التداوليَّة في درجاتها الثلاث؛ إذ قسَّمها علماء اللغة على وفق العمق الذي تتناولها[2]، وهي على النحو الآتي:

١-تداوليَّة الدرجة الأولى: دراسة الرموز الإشاريَّة: وذلك عبر متابعة العلامات الإشاريَّة مثل (أنا، نحن، هنا) التي تظهر في الأقوال وتتبيَّن مرجعيَّتها في سياق الكلام، ولا تتحدَّد إحالات هذه الرموز إلَّا بالسياق الذي تُوظَّف فيه، وتتَّضح أكثر في إطار التواصل

(١) ينظر: التداوليَّة وتحليل الخطاب: ٢٠٨.
(٢) ينظر: المقاربة التداوليَّة: ٣٨.

بين المتخاطبين بمعيَّة الزمان والمكان، فالإشاريَّات من قبيل الضمائر وإشارات الزمان والمكان وغيرها تختلف مرجعيَّتها بحسب ظروف التي استعملت فيها.

٢- تداوليَّة الدرجة الثانية: وهي تتضمَّن المعنى الحرفي والمعنى التواصلي: وتعنى هذه المرحلة بدراسة الدَّلالة الضمنيَّة للملفوظ، وذلك بتجاوز المعنى الحرفي، ويتوسَّع بذلك مفهوم السياق من سياق الموضع وكشف الإحالات والمنفِّذين إلى سياق الحدس عند المخاطَبين، وتسعى بذلك لرفع الإبهام في العبارات حتَّى من دون وجود الإشاريات؛ لأنَّها تعتمد على السياق[١]، وتحاول تداوليَّة المرحلة الثانية معرفة انتقال الدَّلالة من المستوى السطحي إلى المستوى التلميحي، وتقوم على الافتراض المسبق والأقوال المضمرة والحجاج، وأمَّا السياق فيخضع لظاهرة التَّماهي عند المخاطبين جميعًا[٢].

٣- تداوليَّة الدرجة الثالثة: نظريَّة أفعال الكلام: وتعنى هذه المرحلة بالنظريات التي تدرس أفعال الكلام، وتقوم على أساسٍ مفاده أنَّ الأقوال الصادرة ضمن وضعيَّات معيَّنة تتحوَّل إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعيَّة[٣]، وتختلف هذه الأبعاد بحسب طبيعة أغراضها التي تحقِّقها من الإنجاز اللغوي، وعليها تمَّ إعادة تصنيف الأفعال على وفق الأفعال الخارجيَّة، والآثار التي تتبع إطلاقها.

(١) ينظر: المقاربة التداوليَّة: ٥١.
(٢) ينظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٣.
(٣) ينظر: م. ن: ١٣.

المبحث الأوَّل

آية (التبليغ) سورة المائدة (٦٧)، سياقاتها، دلالاتها، وأسباب نزولها

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾.

قبل البدء بذكر الروايات التي أوجزها المفسِّرون في أسباب نزول هذه الآية الكريمة، ينبغي أن نقف على بعض ما يتعلَّق بالسياقات الدَّلاليَّة واللغويَّة للآية، وكشف علاقتها ببقيَّة الآيات التي تتقدَّمها، أو التي تأتي بعدها في السورة، ثمَّ ننتقل بعد ذلك إلى الرواياتِ التي تحدَّثت عن سبب نزولها وبيان الأوجه التفسيريَّة لها، بلحاظ الانسجام الحاصل في الخطاب وطبيعته اللغويَّة والدَّلاليَّة.

تضمَّنت السُّورة في جوِّها العام آيات عدَّة تتركَّز حول موضوع الخلافة الإلهيَّة للنبيِّ، وتؤكِّد على الإمامة بوصفها رئاسة ربَّانية بعد النبوَّة؛ إذ جاءت في الآية الثالثة من السُّورة بعض الإشارات التصريحيَّة لكمال الدِّين وتمام النعمة بولاية أمير المؤمنين؛ إذ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة:٣]، وفهم المفسِّرون[1] من هذا الخطاب التأكيد على أنَّ الإسلام بوصفه دينًا لا يكتمل من دون هذا الأمر العظيم الذي عبَّر عنه القرآن بأنَّه موجب لكمال الدين وتمام النعمة، وطبيعة الخطاب تؤكِّد أنَّ هذا الأمر ليس بحجم الواجبات الأخرى؛ بل هو أمر يتوقَّف عليه قبول باقي الواجبات؛ لذلك جعل الله تعالى الكمال والتمام متوقِّف عليه، وهذا يتناسب مع الإمامة والخلافة التي تنفرد عن باقي الواجبات التي كان النبيُّ قد بلَّغ بها في مسيرته التبليغيَّة عن الإسلام، الممتدَّة منذ التكليف حتَّى صدور هذا التوجيه.

ومن جهةٍ أخرى فقد تضمَّنت السُّورة آية ثانية لم تبتعد عن مسارات هذه الآية؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]، وهذه الآية المباركة أكَّدت ضرورة ولاية الله ورسوله والذين

(١) تفسير نور الثقلين: ٢/ ٢٢١.

آمنوا، وجاء في بيان صفة المؤمنين المشار إليهم في هذا الخطاب أنَّهم ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾، وهذه الأفعال تبيِّن هويَّة الذين آمنوا المنصوص عليهم في الآية، وعند الرجوع إلى كثير من التفاسير[1] فإنَّ الذي يصْدق عليه مقصود الخطاب هو أمير المؤمنين عليه السلام، وبذلك لا ينطبق الأمر على غيره، فهو من مختصَّاته، ثمَّ أُتبعت الآية بأخرى وكأنَّها ترسم معالم القبول والرِّضا الإلهي على العباد بعد قبولهم الأمر؛ إذ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

وهذا التأكيد الإلهي على الأمر وبأسلوب الحرص على توجُّهات الناس جميعًا يؤكِّد أهميَّة هذا الأمر بوصفه متعلِّقًا بسعادة الناس لأمر دينهم ودنياهم، والفطرة السليمة التي فطر الله النَّاس عليها تتوافق مع هذا التوجُّه في السَّعي لمحاولة رسم معالم القبول والرضا الإلهي للمكلَّفين الذين يواجهون مختلف التحدِّيات في مسيرة الوصول إلى الله تعالى، وبعد هذه المقدِّمات المتعدِّدة جاءت آية التبليغ بقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾[المائدة:٦٧]، لتؤكِّد ضرورة التصريح بالأمر وإنْ كان هناك بعض الخشية من عدم تفهُّم الناس لهذا التبليغ، وهذا غير مستبعدٍ عن هؤلاء الذين كانوا لا يحبُّون اجتماع النبوَّة والإمامة في بني هاشم، وبالرجوع إلى أسباب نزول الآية المباركة يمكننا الوقوف على هذه الحقيقة، التي ظلَّت متعلِّقة بأذهان المتربِّصين الذين كانوا يسعون بالوسائل المختلفة إلى منع ظهور أمر الولاية بوصفها من استحقاقات الإمام عليٍّ عليه السلام وأبنائه المعصومين عليهم السلام.

وبالرجوع إلى آية التبليغ المباركة يمكن أنْ نقرأها قراءة تداوليَّة لنستظهر خباياها التي تمنحها صلابة التأثير في المتلقِّي وتبيِّن اهتمام المرسل -الله تعالى- بالحدث، وعنايته الكبيرة بالوقوف إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله الذي يظهر قلقه من المتلقِّين لهذا الخطاب، بعد أنْ اختبر نيَّاتهم وابتعادهم عن الرسالة التي أراد الله نشرها بقصد المحافظة على السياق العام للأمر الإلهي الذي سيكون فيه نجاة العباد والبلاد.

(١) التبيان في تفسير القرآن ٣/ ٥٧٧، وتفسير مجمع البيان ٣/ ٣٢٤، وتفسير نور الثقلين٢/ ٦٠.

فقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه تأكيد على أنَّ الأمر صادر من جهة أخرى غير الرسولﷺ، وهو القادر على توجيه الخطاب بصيغة الوجوب، وهذا لم يتعاهده المسلمون من غير الله تعالى؛ لذلك فإنَّ السياق الوارد في الخطاب يكشف أنَّ الأمر خارج عن إرادة الرسولﷺ؛ إذ جاء قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ بيان لمصدر الأمر، وبذلك يخرج الأمر عن دائرة العلاقات الحسبيَّة أو النسبيَّة التي كانت تشغل أفكار بعض المسلمين الذين تصوّروا أنَّ الرسولﷺ تصرَّف بإرادته رغبة في جعل الأمر بيد صهره وابن عمِّه أمير المؤمنينعليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ يؤكِّد أنَّ النبيَّﷺ كان لا يتوقَّع الردَّ الإيجابي من القوم؛ لذلك يظهر من الخطاب خشيته على عدم قبولهم للأمر، وتردُّده في الفعل الذي كشفه الخطاب كان مبنيًّا على معرفته ببعض القوم وعدم رسوخ الإيمان عند بعضهم، وتأكيد الوجوب بضرورة الفعل، وتضمين لغة التهديد بعدم قبول الرسالة التي كانت ممتدَّة لأكثر من عشرين عامًّا من الجهاد والتبليغ يستبطن إشعارًا للمتلقِّين أنَّ القبول والرضا من قِبل الله تعالى محكوم بتقبُّلكم لهذا التوجيه الذي استلمه الرسولﷺ من ربِّه ليبلِّغكم به، وأمَّا الرسالة فهي الأخرى مهدَّدة بالنقص وعدم القبول؛ لأنَّها لا تتمُّ إلَّا بهذا التبليغ، وهذا السياق يحكم على المتلقِّين للخطاب بضرورة قبولهم للأمر وعدم مواجهة الرسولﷺ إلَّا بالحسنى.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ففيه إشارة إلى أنَّ من الناس من سيواجه الأمر بالاعتراض والردَّ، وقد يحاولون بمختلف الوسائل الضغط على رسول اللهﷺ ليتراجع عن هذا التبليغ؛ لهذا يؤكِّد الخطاب أنَّ الله تعالى يحفظ رسولهﷺ من كيدهم وتدبيرهم المعادي للرَّسول وللرسالة التي فيها إنهاء لمرحلة من الصِّراع السياسي الذي تبنَّاه بعضهم بقصد تولِّي الأمر بعد رحيلهﷺ، ومن الشواهد التي أكَّدتها الروايات الشريفة على اعتراض بعضهم ما ورد من موقف النعمان بن الحارث الفهري الذي نزلت فيه آيات من سورة المعا رج؛ إذ نقل الطبرسيُّ (ت: ٥٤٨ هـ) روايات عدَّة عن الواقعة ومنها:

((قال: حدَّثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني، قال: حدَّثنا أبو عبد الله الشيرازي، قال: حدَّثنا أبو بكر الجرجاني، قال: حدَّثنا أبو أحمد البصري، قال: حدَّثنا محمَّد بن سهل، قال: حدَّثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار، قال: حدَّثنا محمَّد بن أيوب الواسطي، قال: حدَّثنا سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمَّد الصَّادق عن آبائهعليهم السلام قال: لمّا نصّبَ رسول اللهصلى الله عليه وآله عليًّاعليه السلام يوم غدير خم، وقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، طار ذلك في البلاد فقدم على النبيّصلى الله عليه وآله النعمان بن الحارث الفهري، فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد، والحجّ، والصوم، والصلاة، والزكاة، فقبلناها، ثمّ لم ترض حتّى نصّبت هذا الغلام فقلت: مَن كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك، أو أمر من عند الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلّا هو أنَّ هذا من الله، فولَّى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقُّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج:١)[1].

ومن جهةٍ أُخرى فقد ترتَّبت على منكري الواقعة أحداث واصابات عدَّة، ومن ذلك ما نقله الرواة في إصابة أنس بن مالك بالبرص أو الجذام بعد إنكاره لواقعة الغدير التي شهد لها عموم الرواة والثقاة[2]، ونقل غير واحد اعتراف أنس بإصابته بدعوة العبد الصالح ويريد بها عليًّاعليه السلام؛ إذ نقل المجلسيُّ (ت: ١١١١هـ) روايات في ذلك فقال: ((عن سالم بن أبي جعدة قال : حضرت مجلس أنس بن مالك بالبصرة وهو يحدِّث، فقال إليه رجل من القوم، فقال: يا صاحب رسول الله ما هذه النمثة التي أراها بك؟ فإنِّي حدَّثني أبي عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنَّه قال: البرص والجذام لا يبلو الله تعالى به مؤمنًا، قال: فعند ذلك أطرق أنس بن مالك إلى الأرض وعيناه تذرفان بالدمع، ثمَّ قال: دعوة العبد الصالح عليّ بن أبي طالبعليه السلام نفذت فيَّ، فعند ذلك قام الناس من حوله وقصدوه، وقال: يا أنس حدَّثنا ما كان السبب؟ فقال لهم: إلهوا عن هذا، فقالوا: لا بدَّ أن تخبرنا بذلك، فقال: اجلسوا مواضعكم

(١) تفسير مجمع البيان: ١٠/ ١٠٥، وينظر: تفسير نور الثقلين: ٤/ ٩٠، والتفسير الصافي: ٢/ ٣٥٢، والميزان في تفسير القرآن: ٦/ ٣٠.

(٢) ينظر: الإفصاح: ١/ ١٣، والعمدة: ١/ ٨٨، ودلائل الإمامة: ١/ ٧٧، والاختصاص: ٣/ ٨.

واسمعوا منِّي حديثًا كان هو السبب لدعوة عليّ))[1].

وأمَّا المقطع الأخير من آية التبليغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾، تأكيدٌ على أنَّ الذي لا يؤمنُ بتبليغ الولاية الوارد في الخطاب فهو كافرٌ بها- بالولاية- وكأنَّ الخطاب يستبطن الحكم على أنَّ قبول هذا الأمر بمعنى الاهتداء إلى رغبة الله تعالى، ورفضه، أي: الكفر به هو خارج عن حدِّ الهداية ومتلبسٌ بالضلال. ومن هنا فإنَّ السياق العام للخطاب في آية التبليغ يقضي بأهميَّة الموضوع، وضرورة التَّماهي مع الأمر الإلهي بما يتناسب مع أهداف المقاصد الربانيَّة في تكليف الرسولﷺ بالبيان والتوجيه على الرغم من وجود أمارات الاعتراض من قبل بعض الناس، وهذا يؤكِّد عناية السَّماء بشؤون الخلق ومحاولة إنقاذهم من التيه والضلال باهتدائهم إلى سُبل الله تعالى في الهداية والصَّلاح.

أسباب نزول الآية:

تعدَّدت الروايات التي جاءت في أسباب نزول هذا الخطاب، واتَّفقت في الغالب على التَّماهي البيني في الكشف عن المقاصد التي استوعبتها الآية المباركة، التي دلَّ السياق على مناسبتها وانسجامها للمراحل الأخيرة من وجود المبلِّغ الإلهي – الرسول الأكرمﷺ – بين الناس الذين اتَّفقوا عند النزول على قبول الأمر واختلفوا بعد ذلك؛ لأسباب شخصيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة، وغير ذلك من التعصُّب وقلَّة الوعي والإيمان، ومن بين الروايات التي نقلها الرواة في أسباب نزول آية التبليغ ما يأتي:

١- نقل فرات الكوفي روايات عدَّة بخصوص نزول آية التبليغ ومنها قوله بسندٍ ينتهي إلى مولى عليّ بن أبي طالبعليه السلام قال: ((حدَّثنا محمَّد بن عيسى الدامغاني قال: حدَّثنا سلمة بن الفضل عن أبي مريم عن يونس بن حسان عن عطية عن حذيفة بن اليمان، قال: كنت والله جالسًا بين يَدَي رسول اللهﷺ وقد نزل بنا غدير خم، وقد غصَّ المجلس بالمهاجرين والأنصار، فقام رسول اللهﷺ على قدميه فقال: أيُّها النَّاس؛ إنَّ الله أمرني بأمر فقال: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾، فقلت

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ٢١٧، وينظر: معجم أحاديث المهدي: ١/ ٤٩٩.

لصاحبي جبرئيل عليه السلام: يا خليلي إنَّ قريشًا قالوا لي: كذا وكذا، فأتى الخبر من ربِّي، فقال: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ثمَّ نادى عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، فأقامه عن يمينه، ثمَّ قال: أيُّها النَّاس ألستم تعلمون أنِّي أولى منكم بأنفسكم؟ قالوا: اللَّهمَّ بلى، قال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه))[1].

٢- ذكر القمِّي في أسباب نزول هذه الآية المباركة حادثة، فقصَّها بقوله: ((وقوله: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قال: نزلت هذه الآية في منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من حجَّة الوداع، وحجَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حجَّة الوداع لتمام عشر حجج من مقدمه المدينة، فكان من قوله بمنى: أن حمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيُّها النَّاس اسمعوا قولي واعقلوه عنِّي، فإنِّي لا أدري لا ألقاكم بعد عامي هذا، ثمَّ قال: هل تعلمون أيّ يوم أعظم حرمة؟ قال النَّاس: هذا اليوم، قال: فأيّ شهر؟ قال الناس: هذا، قال: وأيّ بلدٍ أعظم حرمة؟ قالوا: بلدنا هذا، قال: فإنَّ دماء كم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلَّغت أيُّها الناس؟ قالوا: نعم، قال: اللَّهم اشهد، ثمَّ قال: ألا وكلُّ مأثرة أو بدعة كانت في الجاهلية، أو دم أو مال فهو تحت قَدَميّ هاتين، ليس أحد أكرم من أحد إلَّا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم؟ قال اللَّهمَّ اشهد))[2].

٣- نقل العيَّاشيُّ (ت: ٣٢٠ هـ) رواية في سبب نزول الآية فقال: ((عن المفضل بن صالح عن بعض أصحابه عن أحدِهما قال: إنَّه لمَّا نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ شقَّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وآله وخشي أن يكذِّبه قريش، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية فقام بذلك يوم غدير خم))[3].

(١) تفسير فرات الكوفي: ٣/ ٦٩.
(٢) تفسير القمّي: ٩/ ١٣.
(٣) تفسير العياشي: ١/ ٣٤٩.

٤- ذكر الطبرسيُّ عن آية التبليغ ونزولها عدَّة أقوال نسبها إلى غير واحد؛ إذ قال: ((ثمَّ أمر سبحانه نبيَّه بالتبليغ، ووعده العصمة والنصرة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، وهذا نداء تشريف و تعظيم ﴿بَلِّغْ﴾، أي: أوصل إليهم ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، أكثر المفسِّرون فيه الأقاويل؛ فقيل: إنَّ الله تعالى بعث النبيّ ﷺ برسالةٍ ضاق بها ذرعًا، وكان يهاب قريشًا فأزال الله بهذه الآية تلك الهيبة، عن الحسن. وقيل: يريد به إزالة التوهُّم من أنَّ النبيَّ ﷺ كتم شيئًا من الوحي للتقيَّة، عن عائشة. وقيل غير ذلك، وروى العيَّاشي في تفسيره بإسناده عن ابن عمير عن ابن أذينة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وجابر بن عبد الله قالا: أمر الله محمّدًا ﷺ أن ينصِّبَ عليًّا عليه السلام للنَّاس فيخبرهم بولايته، فتخوَّف رسول الله ﷺ أن يقولوا حابى ابن عمِّه وأن يطعنوا في ذلك عليه فأوحى الله إليه هذه الآية فقام بولايته يوم غدير خم، وهذا الخبر بعينه قد حدَّثناه السيِّد أبو الحمد عن الحاكم أبي القاسم الحسكاني بإسناده عن ابن أبي عمير في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل والتأويل، وفيه أيضًا بالإسناد المرفوع إلى حيان بن علي الغنوي، عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ عليه السلام فأخذ رسول الله ﷺ بيده عليه السلام، فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه. وقد أورد هذا الخبر بعينه أبو إسحاق أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثعلبي في تفسيره بإسناده مرفوعًا إلى ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في عليٍّ عليه السلام أمر النبيّ ﷺ أن يبلِّغ فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيد عليٍّ عليه السلام فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه، وقد اشتهرت الروايات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنَّ الله أوحى إلى نبيِّه ﷺ أن يستخلف عليًّا عليه السلام، فكان يخاف أن يشقَّ ذلك على جماعةٍ من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ تشجيعًا له على القيام بما أمره الله بأدائه، والمعنى إن تركت تبليغ ما أنزل إليك وكتمته كنت كأنَّك لم تبلِّغ شيئًا من رسالات ربِّك في استحقاق العقوبة، وقال ابن عباس: معناه إن كتمت آية ممَّا أنزل إليك فما بلَّغت رسالته، أي: لم تكن ممتثلًا بجميع الأمر ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، أي: يمنعك

من أن ينالوك بسوء ...))[1].

٥- قال السيِّد الطباطبائي عن آية التبليغ: ((وأمَّا ما رواه من الرواية فقد عرفت ما ينبغي أن يقال فيها غير أنَّ هاهنا أمرًا يجب التنبُّه له، وهو أنَّ التدبُّر في الآيتين الكريمتين: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، الآية على ما سيجيء من بيان معناه، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، الآية، والأحاديث الواردة من طرق الفريقين فيهما، وروايات الغدير المتواترة، وكذا دراسة أوضاع المجتمع الإسلامي الداخليَّة في أواخر عهد رسول الله، والبحث العميق فيها يفيد القطع بأنَّ أمر الولاية كان نازلًا قبل يوم الغدير بأيَّام، وكان النبيُّ ﷺ يتَّقي الناس في إظهاره، ويخاف أن لا يتلقُّوه بالقبول أو يسيئوا القصد إليه فيختلّ أمر الدعوة، فكان لا يزال يؤخِّر تبليغه النَّاس من يوم إلى غد حتَّى نزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾، الآية، فلم يمهل في ذلك))[2].

٦- نقل الفيض الكاشاني رواية أسندها إلى الإمام الباقر عليه السلام قال فيها: ((وعن الباقر عليه السلام عن رسول الله ﷺ في حديث في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: وأنا مبيِّنٌ لكم سبب نزول هذه الآية، أنَّ جبرئيل هبط إليَّ مرارًا يأمرني عن السلام ربِّي، وهو السلام، أن أقوم في هذا المشهد فأعلِّم كلَّ أبيض وأسود أنَّ عليَّ بن أبي طالب (صلوات الله وسلامه عليه) أخي ووصيي وخليفتي، والإمام من بعدي، وهو وليُّكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى عليَّ بذلك آية من كتابه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام أقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة وهو راكع، يريد الله في كلِّ حال. وفي الخصال في احتجاج عليٍّ (صلوات الله عليه) على أبي بكر قال: فأنشدك بالله ألي الولاية من الله، مع ولاية رسوله، في آية زكاة الخاتم أم لك؟ قال: بل لك))[3].

٧- بيَّن الشيخ مكارم الشيرازي دلالات عدَّة متعلّقة بالآية وسبب نزولها؛ إذ قال: ((إنَّ لهذه الآية نَفَسًا خاصًّا يميِّزها عمَّا قبلها وعمَّا بعدها من آيات، إنَّها تتوجَّه بالخطاب إلى

(١) تفسير مجمع البيان: ٣/ ٣٤١.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٥/ ١١٣.
(٣) التفسير الصافي: ٢/ ٤٧.

رسول اللهﷺ وحده وتبيِّن له واجبه، فهي تبدأ بمخاطبة الرّسولﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ وتأمره بكلِّ جلاء ووضوح أن ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ ثمَّ لكي يكون التوكيد أشدّ وأقوى، تحذِّره وتقول: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ثمَّ تطمئن الآية الرَّسولﷺ وكأنَّ أمرًا يقلقه وتطلب منه أن يهدئ من روعه، وأن لا يخش النَّاس: فيقول له: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾))[1].

وبالنظر إلى عموم الروايات التي نقلها المفسِّرون والرواة في توجيه الخطاب في الآية المباركة نجد أنَّ وحدة الموضوع ثابت على الرغم من اختلافهم في ذكر بعض التفاصيل، التي رافقت عمليَّة التبليغ وآلية التوجيه، ووجود بعض الأحداث التي رافقت مسيرة تطبيق الأمر يؤكِّد أنَّ الموضوع أثَّر بشكلٍ واقعيٍّ في الوسط الإسلامي، فسلَّم لأمر الله ورسوله المؤمنون، وحاول غيرهم تأويل الخطاب وإبعاده عن مساره الذي خصَّه الأمر بوضوحٍ بيِّن بعيدًا عن تكلُّف التأويل وتوجيه الأمر بالشكل الذي يتناسب مع الذوق الشخصي ولا ينسجم مع جوِّ الخطاب ومقاصده.

ولغة الخطاب القائم على الأمر بالتبليغ الذي يمثِّل إرادة السَّماء يستبطن خشية الرسولﷺ في عدم قبول بعضهم لهذا الأمر وانسياقهم لرغباتهم البشريَّة التي كانت غالبة على بعضهم، فأصبحت مواقفهم واضحة في مواجهة إرادة الله ورسوله إذا تعرَّضت مصالحهم الشخصيَّة إلى التهديد؛ لذلك نجد أنَّ هذه الوساوس أشغلت دائرة الخطاب، فجاء التأكيد على ضرورة المواجهة والتصدِّي للمؤامرات والفتن التي قد تُثار من هؤلاء، وتأكيد الخطاب على نصرة رسول الله تعالى من قِبل الله مباشرة، بعصمته من الناس الذين قد لا يتقبَّلون التبليغ لا يراد به استئناس الرسولﷺ، أو تشجيعه على التبليغ فهو المعصوم الذي لا يشكُّ بنصرة الله له ولا يتراجع من خشية عدم القبول من جهة المتلقِّين؛ بل يؤكِّد للنَّاس أنَّ الله تعالى لا يتخلَّى عن رسوله الكريمﷺ الذي لا يتأخَّر عن الامتثال لأمر ربِّه القاهر فوق عباده والغالب لأمره.

(١) تفسير الأمثل: ٤/ ٨٢.

المبحث الثَّاني: التحليل التَّداولي لآية التَّبليغ

المطلب الأوَّل

المستوى التَّداولي الأوَّل (مستوى الإشاريَّات)

وهو المستوى الأوَّل الذي قدَّمه بيرس، ويتعلَّق بالعلامات الإشاريَّة كمثل (أنا، هنا، الآن) التي تتداخل في الجُمل والأقوال، وتتبيَّن مرجعيَّاتها من سياق الحديث، ولا تتَّضح إحالات هذه الإشاريَّات إلَّا من خلال السياق الذي تُوظَّف فيه، فتتَّحد في استعماله ضمن إطار علاقةٍ معيَّنة بين المتخاطبين والزَّمان والمكان[1]، فالضمائر وإشارات الزَّمان والمكان تختلف إحالاتها بحسب استعمالها، ومن هنا يمكن أن ننظر إلى الإشاريَّات في آية التبليغ من طريق الإشارات الشخصيَّة، وهي واحدة من أهمِّ الإشاريَّات في ميدان التداوليَّة؛ لأنَّها تدلُّ على المنتج أو المتلقِّي أو الآخر وهو الغائب، وتكون للمفرد أو المثنى أو الجمع، فالذات التي تلفظ الكلام تدلُّ على المتكلِّم في السياق، وقد تصدر خطابات متعدِّدة عن متكلِّمٍ واحد، وتتغيَّر بتغيُّر السياق الذي يأتي فيه، ويحيل إلى دلالات مختلفة[2]، ويعتمد على الكفاءة التداوليَّة بين المتخاطبين، وإلَّا فقد لا يفهم قصد المتكلِّم من الإشارة.

قبل البدء في تحليل الإشاريَّات التداوليَّة في آية التبليغ، ينبغي الإشارة إلى سمة أسلوبيَّة تتعلَّق بالإحالات في الآية؛ وهي كلُّ ما ورد من إحالات في الآية هي إحالات نصيَّة أسهمت بربط النصِّ بجهة صدوره وتبليغه، ما عدا إشارة تداوليَّة واحدة تمثَّلت بالاسم الموصول؛ إذ يُشير إلى أمرٍ خارج النصِّ، وقد اجتهد الرسول في توضيحه قولًا وفعلًا- على ما يأتي بيانه- أمَّا جماليَّة السَّبك النصِّي وإن كان خارج موضوعنا؛ لأنَّه من الإحالات الداخليَّة النصيَّة لا التداوليَّة إلَّا أنَّها أسهمت بربط النصِّ بجهة صدوره العليا (الله سبحانه)، وجهة تبليغه العليا بلحاظ البشر (الرسول)، ويمكن بيانها بالآتي، ثمَّ الولوج ببيان الإشاريَّات التداوليَّة:

(١) ينظر: استراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة: ٧٩.
(٢) ينظر: م. ن: ٧٩.

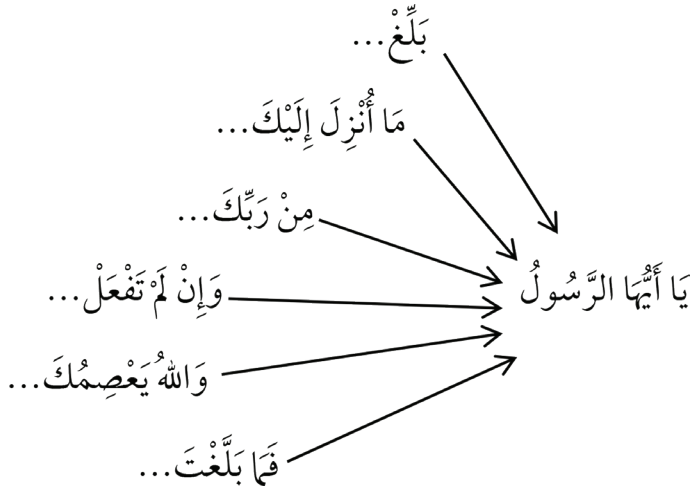

أمَّا الإشارة التداوليَّة الوحيدة التي نجدها في الآية - وهي جوهرها وغرضها- هو الاسم الموصول (ما) الذي لا نجد ما يحيل إليه داخليًّا، وعلى البحث أن يتتبَّع إجراءات التبليغ التي أدَّاها الرَّسولﷺ؛ ليضع اليد على مصداق قوله تعالى: ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ما هو؟ ولماذا لم يكتفِ القول بـ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وكفى! لأنَّ الإنزال ضمنًا مفهوم من الله سبحانه؛ لماذا أكَّد ذلك النزول بقوله سبحانه: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾؟ كلُّ ذلك يكشف عن أهميَّة المُنزَل، ومركزيَّة ما تعلَّق به الإنزال، ومفصليَّة ذلك المنزل في مسار الدَّعوة الإسلاميَّة قاطبة.

تكشف لنا حفريَّات التاريخ والنصوص الحديثيَّة المعتبرة عند علماء الأمَّة أنَّ الرسولﷺ عندما نزلت عليه الآية في طريق رجوعه من مكَّة إلى المدينة اتَّخذ في تبليغها إجراءاتٍ لم يسبق أن مارسها في تبليغ أي آية من قبل؛ لذا ما دمنا نتحدَّث عن إشاريَّات مقاميَّة تداوليَّة نجد لزامًا على البحث أن يعرِّج على ما يشفي متاع البحث العلمي والمنهجي؛ وصولًا إلى معرفة الإشارة لاسم الموصول في الآية، وبحسب الإيجاز الآتي[1]:

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٧١، ٢٦٢، ٢٦٩، وينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٣/ ٦٣١، و البداية والنهاية: ١١/ ٧٢، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: ٥٨٩.

١- عندما جاء أمر الله سبحانه لتبليغ ما أنزل إلى الرسولﷺ ضحًى، واصل المسير إلى أن وصل غدير خم[١] ولهذا المكان مميِّزات، منها: أنَّه مكان واسع استوعب كلَّ الحجيج الذين زادوا على مائة ألف حاجٍّ، وكان شبه منبسط، ومحاطًا بالجبال وفيه صدى للصوت قوي ومسموع، وكان مفترق طرق الحجَّاج إلى أمصارهم.

٢- أمر الرسولﷺ بالمتقدِّم أن يرجع إلى الغدير، وانتظر المتأخِّر منهم.

٣- انتظر الرسولﷺ موعد الصَّلاة، وكان الجوّ شديد الحرارة، ولا يجد الحجَّاج ما يتوارون به من الحرِّ، وأخذوا يتساءلون عن الأمر المهمِّ الذي يريد الرسولﷺ تبليغه في هذا الصقيع الحار.

٤- بعد أن أكمل صلاتهﷺ أمرهم بجمع ما يعلو ظهور إبلهم فصنعوا له منبرًا وصعدﷺ عليه.

هنا علينا أن ندقِّق بـ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ فماذا بلَّغﷺ من أمر لم يبلغه خلال مسيرة الدعوة؟! لو تأمَّلنا خطابهﷺ لوجدناه كلَّه تذكيرًا بتعاليم الدين التي جاهد الكافرين على تبليغها طوال مسيرته، ومنها: حفظ الأمانة، وتوحيد الله سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غيرها من أسس الدين التي يعلمها جميع من حضر، إلى أن وصل إلى نعيه لنفسه وإنَّهﷺ مفارقهم، ثمَّ بلَّغ الأمر المهم ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، إذ قالﷺ: ((إنَّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه))[٢]، يقولها ثلاث مرَّات، ثمَّ قال: اللَّهم والِ من والاه، وعادي من عاداه، ثمَّ لم يتفرَّقوا حتَّى نزل أمين وحي الله تعالى بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وهنا تبيَّن مصداق الإشارة التداوليَّة واتَّضح على من تحيل، وجاء تفسير الموصول بأنَّه التبليغ بولاية عليِّ بن أبي طالبؑ، وهذا لم يذكر في السياق القولي وإنَّما كشفه المقام التَّداولي.

(١) ينظر: تفسير فرات الكوفي: ٣/ ٦٩.
(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٧١، ٢٦٢، ٢٦٩.

المطلب الثَّاني: المستوى التداولي الثَّاني

أوَّلًا: متضمِّنات القول:

شكَّلت متضمِّنات القول بفرعيها (الافتراض المسبق، والاقوال المضمرة) حيِّزًا لا يُستهان به في الدرس التداولي؛ ذلك بالنَّظر إلى الأثر الواضح لها في مدِّ جسور التَّواصل بين منتج الخطاب والمتلقي، والمعلوم أنَّ أيَّةَ عمليَّة تخاطبيَّة بين شخصينِ أو أكثر لا يكون إلَّا إذا تضمَّن جانبين من الكلام: (الصريح والضمني) فأمَّا الصريح فواضح من ظاهره، وأمَّا الضمني فيستلزم قرائن للكشف عنها، ويمثِّل السياق أفضل تلك القرائن إفهامًا لحيثيَّات الكلام، والكلام الضمني يتشكَّل من النمطينِ: (الافتراض المسبق، والأقوال المضمرة)، وكلاهما قائم على التحليل الفلسفي الذي يعدُّ أرضيَّة التداوليَّة بشكلٍ عامٍّ[1].

وقد تضمَّنت آية التبليغ هذه الأنماط بشكلٍ متميِّز، وسنقف على بعض أمثلة الأقوال المضمرة دون الافتراض المسبق الذي لا يمكن تصوُّره في كلام الله تعالى؛ إذ من المحال افتراض هذا الأمر على القرآن الكريم بوصفه يمثِّل كلام الله تعالى، وهذا الأمر كشف عن عدم قدرة النظريَّات اللسانيَّة أو التداوليَّة أو عدم مناسبتها في عموم مفاصلها للخطاب القرآني مع أنَّ هناك من ذهب باتجِّاه القول إنَّنا في مثل هكذا مسائل نحاول قراءة الخطاب ومعالجته على وفق استيعاب النظريَّة التداوليَّة؛ بوصفه ملفوظًا عبر المنتج البشري الذي يصدُر عنه الخطاب لا على تصوُّر صدوره العالي والحقيقي، ومن هنا سنقتصر على الأقوال المضمرة وعلى النحو الآتي:

الأقوال المضمرة:

وهو المرتكز المهم الذي تستند إليها متضمِّنات القول، وهي تختلف عن الافتراض المسبق؛ بوصفها تمثِّل كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحويها، ويكون الوصول إليها بحسب المعطيات اللغويَّة، وتكون عادة غير ظاهرة؛ بل تتَّضح عبر سياق التأويل، فلا

(١) ينظر: التداوليَّة عند العلماء العرب (دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التُّراث اللساني العربي): ٣٠.

يمكن الاكتفاء بالمعاني المعجميَّة للكشف عنها، ويتحمَّل المتلقي مسؤوليَّة تحليل الخطاب للوصول إلى مقاصد المتكلم، وهذا يستلزم كفاية لغويَّة وتواصليَّة ومرجعيَّة ثقافيَّة لفهم السياق، وتأويل الحديث وبلوغ قصد المتكلِّم وكشف كُنه الخطاب، وعلى هذا فإنَّ الأقوال المضمرة ترتبط بالخطاب ومقامه، وتنزع منزعًا مغايرًا للافتراض المسبق، وقد تجلَّت في آية التبليغ بوضوح؛ إذ اشتملت الآية على وجود أقوالٍ عدَّة مضمرة وعلى النحو الآتي:

١- أنَّ الخطاب يتنزَّل من جهة عالية خارجة عن إرادة الرسولﷺ.

٢- من يريد الحقَّ يقدِّم بين يديه كلَّ غالٍ ونفيس.

٣- الخطاب يفترض أنَّ هذا الأمر رُبما سيقابل بالرد والاعتراض؛ لذلك كان من الضروري التأكيد على أنَّ الله تعالى سيعصم نبيَّه من كيد الكائدين.

٤- تضمَّن التبليغ أنَّ أمر قبول الرسالة التي امتدَّت لسنوات متوقف على هذا التبليغ.

٥- الثقة بالنَّفس والتوكل على الله تعالى والاستعانة به في النصر وطلبه.

٦- تنزيه الله تعالى بتفرُّده وإنفاذ أمره ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾.

٧- النبيُّﷺ اتَّصف بالأخلاق في الدعوة إلى دينه، ولا يأخذه في طاعة الله تعالى لومة لائم.

ثانيًا: الحِجَاج:

تعدَّدت المعاني للحجاج ومفهومه، وأكثر العلماء ذكر أن الحجاج يكون بمعنى المخاصمة، وجاء في القرآن الكريم بهذا المعنى، إذ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ...﴾ [البقرة:٢٥٨]؛ فدلالة الفعل حاجّ على محاججةٍ حصلت بين النبي إبراهيمؑ والنمرود، وقد نصَّ أهل التفسير في هذه الآية الكريمة على أنَّ الفعل (حاجَّ) بمعنى جادل[١]، أمَّا أهميَّة الحجاج عند العرب فقيل إنَّه من أرفع العلوم قدرًا وأعظمها شأنا؛ لأنَّه الطريق إلى معرفة الاستدلال والتمييز بين الحق والمحال[٢]، فالحجاج أسلوب يؤدِّيه

(١) ينظر: تفسير القمِّي: ١/ ٨٦.

(٢) ينظر: المنهاج في ترتيب الحجاج: ٨٠.

المخاطِب لبيان موقفه أمام متلقيه؛ بل إجراء يتَّخذه متكلِّم أو مجموعة متكلمين لإقناع المستمع بتبنِّي موقفٍ أو سلوكٍ اعتمادًا على براهين وحججٍ واضحة[١]، وميدان الحجاج يعتمد على البلاغة؛ لذلك نسبها بعضهم إلى البلاغة الكلاسيكيَّة التي كانت عند أرسطو أو عند فلاسفة الإسلام، وعزاها آخرون إلى بلاغة بيرلمان الحديثة، زيادة على ذلك فقد قال بعض الباحثين أنَّ الحجاج يعتمد على منطق غرايس[٢].

وأما واضعوا نظريَّة الحجاج اللسانيَّة فهم (بيرلمان، وتيتيكاه)، ثمَّ جاء الفرنسي (ديكرو) سنة ١٩٧٣، الذي جعلها نظريَّة لسانيَّة تدرس الوسائل اللغويَّة وبإمكانيَّات اللغات الطبيعيَّة، وذلك بقصد توجيه خطاب المتكلِّم بشكلٍ يتناسب مع بلوغ غايته وأهدافه، وبذلك يمكن القول إنَّ دراسة الحجاج تقوم على مبدأ الخطاب الهادف واستمالة الخصم بمختلف الاستدلالات الصوريَّة التي تؤثِّر في المخاطب[٣].

ويعتمد الخطاب الحجاجي على التفسير، بشرط عدم تبنِّي موقف على حساب آخر، ويقوم على توضيح مختلف السلوكيَّات المتَّخذة في المواقف المختلفة، على أن يتمَّ اختيار موقف الحياد، ثمَّ تعليل سبب اتِّخاذ موقف دون آخر ما بعد ضمان سلامة موقفه، ويقدِّم المخاطب على نفسه وسائل لإصدار حكمٍ عليه؛ لأنَّه ينبغي للأخير أن يكون قادرًا على اتِّخاذ موقف الاقتناع أو الدحض للقضيَّة المطروحة[٤]، وأمَّا التفسير فيقوم بكشف دلالات النَّصِّ بما يقتضيه ظاهره، فيظهر المعنى المباشر للفظ، من دون أن يخفي المفسِّر حقيقة الملفوظ.

وبالعودة إلى آية التبليغ نجدها قائمة على مبدأ الحجاج، فهناك فريقان تقابلا من أجل المخاصمة والمجادلة في موضوع معيَّن تضمَّنه سياق الخطاب، ومثل الطرف الأوَّل خير خلق الله تعالى النبيُّ محمَّدﷺ، وفي المقابل كان هناك فريق ممَّن وقف بوجه التبليغ ومقصود

(١) ينظر: التعريفات: ٤٨٢.
(٢) ينظر: الحجاج في اللُّغة: ٣٥٨.
(٣) ينظر: عندما نتواصل نغيرِّ، مقاربة تداوليَّة معرفيَّة لآليات التواصل والحجاج: ٦٧.
(٤) ينظر: الحجاج وأشكال التأثير: ٣٠٠.

الخطاب[1]، ودلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وموضوع الخلاف ولاية عليٍّ عليه السلام[2]؛ إذ قال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، ومن المناسب أن نشير إلى أنَّ الله تعالى كان مسلطًا على ما في قلوب القوم، ويعلم ما يدور في فلكهم، لذلك نجده يأمر نبيَّه الكريم بتبليغهم، وبشكلٍ صريح بعد أن يأس من دعوتهم إلى تصحيح مفاهيم عقيدتهم ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وحينما انقطعت السُّبل كان خيار الأمر بالتبليغ الصريح هو الحل الأنسب، الذي انتهى كما تبيَّن بانتصار فريق النبيِّ محمد صلى الله عليه وآله، على المعاندين والمجادلين، وكان بذلك انتصارًا للإسلام والدين وعقائده ولاسيَّما في إثبات مراد الله تعالى في التأكيد على أمر الولاية.

ومن الجدير بالذكر أنَّ عمليَّة المخاصمة تناول مبدأ الحجاج على وفق مباني الحجاج، وتركز على مجموعة من الثوابت والوسائل الحجاجيَّة، ومنها الأفعال التي جاءت لتحاكي موضوعة المحاجة، وتبيِّن الأقوال المحوريَّة التي قام عليها الحجاج، ومن هذه الأفعال:(بلغ، تفعل، بلغت، يعصمك)؛ إذ صوَّرت هذه الأفعال مشهدًا واقعيًّا يتناسب مع جوِّ الآية المباركة.

ثالثًا: الاستلزام الحواري:

الاستلزام الحواري يمثِّل ركيزةً أساسيَّةً من الركائز المعتمدة في التداوليَّة؛ بل هو ألصق بالبحث التَّداولي من غيره؛ لأنَّ هذه الركيزة تكون أبعد من غيرها عن الالتباس في الجانب الدَّلالي، ويعود تاريخه إلى المحاضرات التي ألقاها غرايس عام ١٩٦٧م، في جامعة هارفارد، ثمَّ طُبعت هذه المحاضرات فيما بعد على شكل بحوث سنة ١٩٧٥م[3]، وأكَّد غرايس في محاضراته على أنَّ الاستلزام الحواري يقوم أساسًا على مبدأين هما: (الاستلزام الخطابي، ومبدأ التعاون بين المخاطبين)[4].

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ٢١٧، وينظر: معجم أحاديث المهدي عليه السلام: ١/ ٤٩٩.
(٢) معجم أحاديث المهدي عليه السلام: ٦/ ٤.
(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٢.
(٤) ينظر: علم جديد في التواصل: ٥٤.

ولتوضيح مفهوم الاستلزام الحواري ذكر غرايس أنَّ النَّاس في تبادلهم للحوارات فيما بينهم قد يقصدون ما يقولون، أو يقصدون أكثر ممَّا يقولون، أو لا يقصدون ما يقولون، فبيَّن أنَّ دراسته لهذا المفهوم يقوم على ايضاح الاختلاف بين ما يقال، وما يقصد، وأشار إلى أنَّ ما يقال هو ما تعنيه حقيقة الملفوظ، وأمَّا ما يقصد فهو ما يريد منتج الخطاب إبلاغه للمتلقي بشكل غير مباشر، مع توفر القرائن التي تساعد على فهم المراد[١]، وهذ الذي يعرف بمبدأ التعاون بين المتخاطبين.

وفرَّق غرايس بين المعنى الدَّلالي والمعنى التداولي للجملة، فذكر أنَّ المعنى الدَّلالي هو المعنى في المعجم مضاف إليه العلاقات التي تأتيه من النحو، واصطلح له تسميةً هي الفعل اللُّغوي المباشر، وأمَّا المعنى التداولي فهو المعنى الذي يأتي من الحوار بين المتكلِّم والمتلقِّي، وله قوَّة إنجازيَّة تتمثَّل بالفعل الأدائي، فالمتكلم بذلك ينجز في أثناء الكلام فعلًا أدائيًّا صريحًا أو ضمنيًّا[٢].ويقوم الاستلزام الحواري على انتهاك عناصر مبادئ التَّعاون الحواري التي يتبعها المشتركون في الحوار، وهي على النحو الآتي[٣]:

١- مبدأ الكم: فيه يجعل المتكلم مشاركته على قدر المطلوب بلا زيادة أو نقص.

٢- مبدأ الكيف: يشترط هذا المبدأ على المتكلِّم ألَّا يقول شيئاً يعتقد أنَّه خطأ، وألَّا يقول الصحيح مع عدم امتلاكه الدليل عليه.

٣- مبدأ المناسبة: وهذا المبدأ يفرض عدم الابتعاد عن الموضوع الذي هم بصدده؛ لأنَّه بعكس ذلك يكون التشعُّب والابتعاد عن الأصل.

٤- مبدأ الطريقة: وفيه يتمُّ توخِّي الوضوح، والإيجاز والابتعاد عن اللبس.

وبالرجوع إلى آية التبليغ نجد أنَّ هناك ظواهر لهذه المبادئ، فمثلًا في باب المناسبة نلحظ أنَّ النصَّ القرآني ينتقل من موضوع إلى آخر، ولم يكن بالحُسبان ان يتغيَّر الموضوع إلى

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣.
(٢) ينظر: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها المعاصرة: ١٨٧.
(٣) ينظر: التداوليَّة عند علماء العرب: ٣٤.

موضوع آخر؛ إذ كان أصل لخطاب يتمحور عن ضرورة التبليغ الصريح بالولاية، ثمَّ انتقل إلى الإشارة إلى أنَّ الله تعالى عاصم لنبيِّهﷺ من أذاهم، وانتقال الموضوع من موضوع التبليغ إلى موضوع العصمة من الأذى يؤكِّد بحسب رؤية التداولين خرقًا لمبدأ المناسبة الذي يراد به وحدة الموضوع، الذي ينبغي أن يكون معلومًا أنَّ هذا الانتقال في النصِّ لم يكن إلَّا بعد علم الله تعالى بأنَّ القوم لن يتقبَّلوا الأمر بسهولة، ولمَّا يأس النبيﷺ من دعوتهم، أمره ربَّه بدعوتهم تصريحًا، وهذا أيضًا قد يكون من المبادئ التي راعى فيها سبحانه وتعالى بعض أساليب العرب.

المطلب الثالث: أفعال الكلام

فعل الكلام أو (فعل القول): هو ذلك الفعل الذي يُنجز بمجرد تلفظنا لبعض المفردات، والقول أو الخطاب قد يكون مباشرًا أو تلميحيًا، والأوَّل: هو ما نقصد به الأفعال الكلاميَّة المباشرة[1]، وأمَّا الآخر (التلميح): فهو الفعل الكلامي غير المباشر بحسب ما صنَّفه اوستين ومن بعده تلميذه سيرل[2]، وقد اقترح اوستين للفعل الكلامي خمسة أقسام[3]، وهي:

١- الحكميَّات: وتتمثَّل في إصدار حكم نحو قضيَّة معيَّنة، مثل: التبرئة، الإدانة، إصدار أمر، الفهم، الإحصاء، التصنيف، التوقُّع، التشخيص...إلخ.

٢- التنفيذيَّات: تتقوَّم بمتابعة أعمال، مثل: التسمية، الاتهام، الطرد، العزل، التوسُّل، الاستقالة... ويندرج هذه الأفعال ضمن صنف الحكميَّات، فهي أعمال تنفيذ أحكام؛ ولكنَّها ليست بنفسها حكميَّات.

٣- الوعديَّات: وتسمَّى أيضًا إلزاميَّات وكذا أفعال التكليف؛ لأنَّها توجب على المتكلّم إنجاز فعل معيَّن مثل: الوعد، التعاقد، الموافقة، النية، العزم...إلخ.

٤- السلوكيَّات: وترتكز على إبداء سلوك يتفاعل مع أفعال الآخرين، مثل الشكر

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب: ٣٧.
(٢) ينظر: التداولية من أوستين إلى غوفمان: ٦٨.
(٣) ينظر: م. ن.

والاعتذار والقسم وتقديم التهاني والتحدي والتعازي.

٥- العرضيَّات: ولها تسمية أخرى (التفسيريَّات)، ويهدف المتكلِّم بها إلى الحجاج والنقاش والتبرير، وتختصّ بعرض بعض المفاهيم من قبيل: التأكيد، الوصف، النفي، الإصلاح وغير ذلك.

وقد اكتملت النظرية على يد سيرل الذي نظَّم أفكار أستاذه، فجعل الفعل الكلامي على أقسام تندرج أكثرها ضمن تصنيف اوستين مثل: (فعل التلفُّظ، الفعل القضويّ، الفعل الإنجازيّ، الفعل التأثيريّ)[١] فنصَّ سيرل على أنَّ الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتِّصال اللغوي، وأنَّ للقوَّة الإنجازيَّة دليلًا يُسمَّى دليل القوَّة الإنجازيَّة يُبيِّن لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤدِّيه المتكلِّم بنطقه للجملة مثل: النبر والتنغيم، وعلامات الترقيم، وصيغة الفعل، وما يُسمَّى الأفعال الأدائيَّة.

١- قام بتعديل التقسيم الذي قدَّمه أوستين للأفعال الكلاميَّة فجعله أربعة أقسام:

الفعل النطقي: ويشمل الجوانب الصوتيَّة والمعجميَّة والنحويَّة.

الفعل القضوي: الذي يشمل المتحدِّث عنه أو المرجع، والمتحدِّث به أو الخبر.

الفعل الإنجازي: وهو ما يؤدِّيه التلفُّظ من إنجاز فعل في الواقع.

الفعل التأثيري: وهو ما يتركه إنجاز الفعل من أثر في متلقِّيه.

٢- الفعل الكلامي عند سيرل أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلِّم؛ بل هو مرتبط أيضًا بالعرف اللغوي والاجتماعي.

٣- قام سيرل بتطوير شروط الملائمة فجعلها أربعة شروط[٢]:

شرط المحتوى القضوي: يتحقَّق بأن يكون للكلام معنًى قضوي نسبة إلى قضيَّة.

الشرط التمهيدي: ويتحقَّق إذا كان المتكلِّم قادرًا على إنجاز الفعل.

(١) ينظر: استراتيجيَّات الخطاب: ١٢٣.

(٢) ينظر: آفاق جديدة: ٤٨. كما أشار إلى أنَّ ثمَّة اثني عشر بعدًا يختلف بها كلُّ فعلٍ إنجازي عن الآخر. و محاضرات في فلسفة اللغة: ١١٤-١١٥.

شرط الإخلاص: ويتحقّق حين يكون المتكلِّم مخلصًا في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد ولا يزعم أنَّه قادر على فعل ما لا يستطيع.

الشرط الأساسي: ويتحقَّق حين يحاول المتكلِّم التأثير في السَّامع لينجز الفعل.

٤- أعاد سيرل النظر في تصنيف أوستين للأفعال الإنجازيَّة، فبيَّن أوجه الضعف فيه[١] فقدَّم تصنيفه البديل على أسسٍ منهجيَّة ثلاثة: (الغرض الإنجازي، اتجاه المطابقة، شروط الإخلاص)، وأبقاها خمسة أصناف على النحو الآتي[٢]:

أ- الإخباريَّات Assertives: والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلِّم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضيَّة يعبِّر بها عن هذه الواقعة، والإخباريَّات تحتمل إحدى قيمتي الصدق والكذب، واتِّجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم إمَّا الحالة النفسيَّة لها فهي الاعتقاد.

ب- التوجيهيَّات Directives: وغرضها الإنجازي محاولة المتكلِّم توجيه المخاطب إلى فعل شيءٍ ما، واتِّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثَّل في الإرادة والرغبة الصادقة، والمحتوى القضوي فيها دائمًا هو فعل السامع شيئًا في المستقبل.

ت- الالتزاميَّات commissives: وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلِّم بفعل شيءٍ ما في المستقبل، واتِّجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو النيَّة أو القصد، والمحتوى القضوي فيها دائمًا فعل المتكلِّم شيئًا في المستقبل.

ث- التعبيريَّات Expressives: وغرضها الإنجازي التعبير عن الموقف النفسي؛ تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتِّجاه مطابقة.

ج- الإعلانيَّات Declarations: والسمة المميِّزة لهذا الصنف من الأفعال أنَّ أداءها الناجح يتمثَّل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، وأنَّها تحدث تغييرًا في الوضع

(١) وجه سيرل لتصنيف أوستين عِدّة اعتراضات منها: افتقاره بوجه العموم إلى مبادئ واضحة ومتماسكة يعتمد عليها للتمييز بين الأفعال الكلاميَّة. للاستزادة ينظر: محاضرات في فلسفة اللغة: ١١٣، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٢٩.

(٢) ينظر: آفاق جديدة: ٧٨.

القائم، فضلًا على أنَّها تقتضي عرفًا لغويًا، واتِّجاه المطابقة فيها قد يكون من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص[1].

وبالعودة إلى آية التبليغ نجد بعض الأفعال الكلاميَّة التي سبق بيانها قد وردت فيها، ومن أمثلتها:

- الفعل الكلامي التوجيهي:

تمظهر الفعل الكلامي التوجيهي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، ولنا أن نقرأه بحسب مستويات الفعل الكلامي:

أ- الفعل النطقي: وهو يشمل الجوانب الصوتيَّة والمعجميَّة والنحويَّة، وقوامه في الآية: (حرف نداء/ يا+ منادى/ أيُّها+ صفة/ الرسول+ مفعل الإيقاع/ بلِّغْ+ اسم موصول/ ما+ جملة الصلة/ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

يكشف بناء الفعل الكلامي اللفظي بتكويناته الصوتيَّة والصرفيَّة والتركيبيَّة عن دقَّةٍ في البناء ممَّا ينبئ عن حمولة معنويَّة مهمَّة أشَّرها تركيز النداء بأداة تُعدُّ أمَّ الباب، مع الاسم(أيُّ) الذي يكشف عن تكريم المنادى فلم يُذكر اسمه مباشرة؛ بل جيء باسم عام تخصِّصه الصفة بعد، وزاد حضور(ها) ليزيد النداء توكيدًا بما يمنحه من مساحة صوتيَّة، ثمَّ جاءت الصفة (الرسول) بما تحتويه من مناحٍ دلالي عام في الدعوة والتبليغ أوسع من قرينها (النبي)، كلّ ذاك مقدِّمات لأمر مهم جاء بفعل أمر صريح (بلِّغ)، والأمر العجيب أنَّ الأمر المراد تبليغه قد نُفِثَ في خلد النبيّ ﷺ، ولم تشتمله الآية بصورة صريحة - على ما بيَّنا ذلك في مطلب الإشاريَّات- إذ استعمل له الموصول (ما) المبهم، وقد جاءت صلته بوصفها كاشفة عن عهد معهود بين الله تعالى ورسوله ﷺ منذ القدم وآن الآوان لتبليغه، تلك أهم تفصيلات الفعل النطقي الذي حمل الفعل الكلامي.

ب- الفعل القضوي: الذي يشمل المتحدّث عنه أو المرجع، والمتحدّث به أو الخبر،

(١) سُجِّلت بعض الانتقادات على تصنيف سيرل، للاستزادة ينظر: الإنشاء في العربية: ٥٠٨، ونظريَّة الفعل الكلامي: ١٣٠.

جاء المحتوى القضوي مركّبًا بعض الشيء؛ إذ قوامه طرفان وواسطة، أمَّا المتحدَّث عنه فهو المقصود بـ(التبليغ) الذي كشف عنه المقام في إجراءاتٍ اتَّخذها الرسولﷺ لا تقبل الشكّ، وترجمها عندما انصرفﷺ من صلاته قام خطيبًا وسط القوم على أقتاب الإبل، ثمَّ أخذ بيد الإمام عليعليه السلام فرفعها حتَّى رُؤيَ بياض إبطيهما٣، وعرفه القوم أجمعون، فقال: ((إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه))[١]، يقولها ثلاث مرَّات، ثمَّ قال: اللَّهم والِ من والاه، وعادي من عاداه.

ت- الفعل الإنجازي: وهو ما يؤدِّيه التلفُّظ من إنجاز فعل في الواقع، وقوامه كلّ إجراءات التبليغ الذي كشف عنها المقام التداولي لتنفيذ الفعل الكلامي؛ إذ لم يتفرَّق الحجيج حتَّى نزل أمين وحي الله تعالى بقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فقال رسول اللهﷺ: الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، والولاية لعليٍّ من بعدي.

ث- الفعل التأثيري: وهو ما يتركه إنجاز الفعل من أثر في متلقِّيه، وقد تحقَّق أثر الفعل الكلامي بعد انتهاء الرسولﷺ من التبليغ؛ إذ طفق القوم يهنِّئون أمير المؤمنينعليه السلام، وممَّن هنَّأه في مقدَّم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر بن الخطاب كلٌّ يقول: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة[٢]، وهذا التبليغ قد تضمَّنه مساحة (ما) الدَّلاليَّة، وهو المتحدِّث به أو الخبر المتعلِّق بمنزلة المتحدِّث عنه الذي أخبرنا به الرسولﷺ، وهو قوله: ((إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه))[٣].

(١) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٧١، ٢٦٢، ٢٦٩، وينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٣/ ٦٣١، والبداية والنهاية: ١١/ ٧٢، وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: ٥٨٩.

(٢) ينظر: الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١/ ١٠- ١١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٢/ ٧١، ٢٦٢، ٢٦٩، وينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٣/ ٦٣١، والبداية والنهاية: ١١/ ٧٢، وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: ٥٨٩.

نرى أنَّ تحقيق الفعل الكلامي مرهون بمجريات مقامه الخطابيَّة، ومدى تأثيره وتحقّقه، وفعل التوجيه هذا قد استكمل كلَّ أركان نجاحه، من طريق تحقُّق شروطه، وهي:

شرط المحتوى القضوي: وقد تحقَّق بأن كان للكلام معنى قضوي (نسبة إلى قضيَّة)، وهي تبليغ ولاية عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام .

الشرط التمهيدي: وقد تحقَّق؛ لأنَّ المتكلِّم قادرٌ على إنجاز الفعل، وقد أدَّاه الرسول صلى الله عليه وآله على وفق إجراءاتٍ كلّها محسوبة، وتحمل إجابات لتساؤلات يمكن أن يثيرها المعترضون.

شرط الإخلاص: ويتحقَّق حين يكون المتكلِّم مخلصًا في أداء الفعل، فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنَّه قادر على فعل ما لا يستطيع، وقد تحقَّق هذا الشرط بأبهى صوره عندما رفع الرسول يد الإمام عليٍّ عليه السلام، وبلَّغ عن قناعة وامتثال لأمر الله سبحانه.

الشرط الأساسي: ويتحقَّق حين يحاول المتكلِّم التأثير في السامع لينجز الفعل، وقد أدَّاه مصحوبًا بتبليغاتٍ هي أساس العقيدة وقوام الدين؛ لتكون ولاية أمير المؤمنين من أصل الدين والعقيدة.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة العلميَّة بين أسباب النزول، وبين التَّحليل التداوليّ لآية التبليغ العظيمة، يتبيَّن بالبحث أنَّ مجموعة الروايات التي نقلت في أسباب نزول الآية المباركة، وإنْ كانت متَّفقة في الغالب على وحدة موضوع الخطاب؛ بوصفه نازلًا في التأكيد على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام إلَّا أنَّ هناك تباينًا واضحًا من جهة النقول في إظهار صورة الحدث، والكشف عن الظواهر المجتمعية التي كانت غالبة على الذوق العام، بحيث وصل الأمر إلى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتحسَّس الاعتراض منهم والردَّ على أمر الله تعالى؛ لذلك استلزم الخطاب بيان تأكيد الله تعالى على نصرة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، وإنْ كان يتطلَّب الأمر الوقوف بوجه المرجفين الذين كانوا يتقصدون الإصرار على عدم التفاعل الإيجابي مع أوامر الله تعالى.

ومن جهة أخرى كشف البحث بقراءة أسباب النزول أنَّ المجتمع الإسلامي كان

متزلزلًا في مواقفه فلم يكن الإيمان راسخًا في قلوبهم؛ بل كانوا يميلون إلى القرارات الجاهليَّة في كثير من مواقفهم ويُحكِّمون العشيرة أو القبيلة في مواجهة الأوامر الإلهيَّة التي كانت تظهر على لسان الرسول ﷺ؛ لذلك بمجرَّد رحيله ﷺ بدأت ثائرة المرجفين تنكشف بالزيغ عن الأوامر التي جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله تعالى، ولاسيَّما التي كانت تخصُّ الولاية وطاعة الله ورسوله فيها.

ومن جهةٍ أخرى فقد كشف التحليل التَّداولي عن منهجيَّة الإسلام بوصفه شريعةً لها القدرة على استيعاب الآخر، ومحاولة توجيهه بالرجوع إلى الحق وعدم التمادي في الباطل، وبيان الوسائل المنتظمة لتحقيق ذلك وبحسب المصلحة التي تكون فيها سعادة الدارين، والتحليل التداولي للخطاب القرآني يتَّسم بخصوصيَّة فريدة، مختلفة عن باقي النصوص التي قد تكون فيها الصيغ التداوليَّة هي الحاكمة للنصوص، أمَّا مع القرآن فالأمر مختلف، كون القرآن هو الحاكم، والتعويل على صدق الروايات الواردة في أسباب النزول أو كذبها يعتمد على قربها من الرؤية القرآنيَّة أو بعدها عنه، والسياق كشف أنَّ فحوى الروايات التي جاءت لتؤكِّد موضوع الولاية وإمامة أمير المؤمنين ﷺ كانت صحيحة مع وجود الزيادة والنقص في بعضها؛ نتيجة الاعتماد على النقل بالمعنى عند بعض الرواة.

المصادر و المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. الاختصاص، الشيخ المفيد (٤١٣هـ)، تح: علي أكبر غفاري، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، د ت.

٣. استراتيجيَّات الخطاب مقاربة لغويَّة تداوليَّة، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٤م.

٤. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، لمحمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعيَّة، الاسكندرية، د ط، ٢٠٠٢م.

٥. الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، الإمام الشيخ المفيد، محمَّد بن محمَّد بن النعمان بن المعلم، أبي عبد الله، العكبري، البغدادي، تح: قسم الدراسات الإسلاميَّة مؤسَّسة البعثة، مركز الأبحاث العقائديَّة، د ط، د ت.

٦. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ.

٧. بحار الأنوار، العلم العلَّامة الحجَّة فخر الأمَّة المولى الشيخ محمَّد باقر المجلسي (قدّس الله سره)، مؤسَّسة الوفاء، بيروت، لبنان.

٨. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السَّلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

٩. التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمَّد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ط، ٢٠١٧م.

١٠. تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظريَّة التداوليَّة، عمر بلخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٣م.

١١. التداوليَّة عند العلماء العرب، دراسة تداوليَّة لظاهرة الأفعال الكلاميَّة في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

١٢. التداوليَّة من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر حباشة، دار الحوار، سورية، اللاذقيَّة، ط١، ٢٠٠٧ م.

١٣. التعريفات، الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تح: إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٢م.

١٤. تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، محمَّد بن مرتضى (ت١٠٩١هـ)، مكتبة الصدر، طهران، إيران، ط٢، ١٤١٥هـ.

١٥. تفسير العيَّاشي، ابن عيَّاش السلمي السمرقندي المعروف بالعيَّاشي، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

١٦. تفسير القمِّي، عليّ بن إبراهيم القمِّي (ق٣)، دار الكتاب، قم، ط٣، ١٤٠٤هـ.

١٧. تفسير فرات الكوفي، فرات بن إبراهيم الكوفي (٣٥٢هـ)، تح: محمَّد كاظم، مؤسَّسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

١٨. تفسير مجمع البيان، أبو علي الفضل الحسن الطبرسي (٥٤٨هـ)، حقَّقه: لجنة من المحقِّقين الأخصائيين، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦م.

١٩. تفسير نور الثقلين، عبد علي العروسي الحويزي (١١١٢هـ)، تح: علي بن عاشور، المطبعة العلميَّة، قم المقدَّسة، ١٣٨٣هـ.

٢٠. الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، إشراف: حمادي صمود، كليَّة الآداب، جامعة منوبة، تونس، د ط، د. ت.

٢١. الحجاج وأشكال التأثير، باتريك شارودو، ترجمة ربيعة العربي، د ط، د ت.

٢٢. دلائل الإمامة، أبو جعفر محمَّد بن جرير بن رستم الطبري الصغير (الشيعي)، تح: قسم الدراسات الإسلاميَّة، مؤسَّسة البعثة، مركز الأبحاث العقائديَّة، د ت.

٢٣. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمَّد بن محمَّد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٤. علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمَّد الشيباني المنظمة العربيَّة للترجمة.

٢٥. العمدة من الفوائد والآثار الصحاح والغرائب في مشيخة شهدة، شهدة بنت أحمد الدينوري، تح: د.رفعت فوزي عبدالمطلب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٤، د ت.

٢٦. عندما نتواصل نغيِّر، مقاربة تداوليَّة معرفيَّة لآليات التواصل والحجاج، عبد السلام عشير، دار افريقيا للشرق، المغرب، د ت.

٢٧. الغدير في الكتاب والسُّنَّة والأدب، الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٤، ١٣٩٧هـ -١٩٧٧م.

٢٨. فصول في تداوليَّات ترجمة النصِّ القرآني، د. مختار زواوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية- ناشرون، د.ط، ٢٠١٨م.

٢٩. اللسانيَّات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، د ط، ٢٠٠٩م.

٣٠. محاضرات في المدارس اللسانيَّة المعاصرة، شفيقة العلوي، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، ٢٠١٩م .

٣١. مسند أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

٣٢. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومنيك مانغونو، ترجمة: محمَّد يحياتن، الدار العربية للعلوم - ناشرون، بيروت، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

٣٣. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام، صهيب محمود الشامي، إشراف الشيخ علي الكوراني، مؤسَّسة المعارف الإسلاميَّة، ط١، ٢٠٢٠م .

٣٤. المقاربة التداوليَّة، فرانسواز أرمينيكو، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (الرباط)، د ت، د ط.

٣٥. المنهاج في ترتيب الحجاج، للحافظ أبو الوليد الباجي، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٣، د ت.

والله يعلم وأنتم لا تعلمون